البناء
السنة السابعة / الأربعاء / 4 تشرين الثاني 2015 / العدد 1924
Seventh year / Wednesday / 4 November 2015 / Issue No. 1924

النجاح الإيراني في العراق يقلق واشنطن... واحتمال دخول روسيّ على الخطّ يثير رعبها

إعداد وترجمة: ليلى زيدان عبد الخالق

تنتشر الفوضى من منطقة الشرق الأوسط إلى خارجها مع هجرة مئات الآلاف من اللاجئين السوريين نحو أوروبا. على مدى العقد الأخير فإن الملايين من العراقيين والسوريين فرّوا من ديارهم. في حين تثبت الحكومات الغربية أنها تبرع كثيراً في توجيه اللوم من دون إيجاد الحلول.

استخدم جورج بوش الإبن هجوماً إرهابياً أجراه مواطنون سعوديون تدرّبوا في أفغانستان كذريعة لغزو العراق، وهو هدف للمحافظين الجدد منذ فترة طويلة ضمن خطتهم لإعادة ترتيب الشرق الأوسط. برّر مسؤولو الإدارة حربهم الوقائية بناءً على ادّعاءات ملتوية من مهاجر غير شريف كان يأمل في حكم العراق. دعاة الحرب كانوا يخططون لإقامة حكومة ليبرالية متحالفة مع الغرب تحكمها دمية أميركية، وصديقة لـ«إسرائيل»، وتكون موطناً وقاعدة للعمليات العسكرية الأميركية ضدّ جيرانها. وأسفرت هذه الخطط في النهاية عن لا شيء. أكثر من عقد من الزمان، ولا يزال ينظر للغزو من قبل محللي السياسة الخارجية على أنه خطأ تاريخي، لا بل إنه الخطأ الأسوأ في السياسة الخارجية الأميركية منذ عقود.

وقد لعبت إدارة باراك أوباما دوراً خبيثاً لكنه ثانوي. مثل سابقتها، فقد واصلت التدخل بأكثر ممّا هو مطلوب.

واليوم، وإزاء كلّ هذه الفوضى في العراق، تظهر إيران كقوّة تساهم في إحياة التقارب بين العراقيين، ما يقلق الولايات المتحدة الأميركية، التي لا تنفك عن زرع بذور الفتنة، إن عبر إعلامها، أو عبر التحالف الدولي ضدّ «داعش»، هذا التحالف الوهميّ الذي لم حقّق لا شيء. وبعد الضربات الجوّية الروسية الناجعة في سورية، والتي ـ إلى جانب التقدّم الميداني للجيش السوري ـ أجبرت واشنطن أن تنصاع لتنظيم مؤتمر فيينا الأخير في شأن سورية. بعد كلّ هذا، جلّ ما تخشاه واشنطن أن تمتدّ هذه الضربات إلى العراق.

قوات الحشد الشعبي

في تقريرنا التالي مقالان، يسلّطان الضوء على تخوّف الولايات المتحدة من قوة إيران المتصاعدة في المنطقة، ومن التدخّل الروسي المحمود.

غيرة أميركا

كتبت مجلّة «إيكونومست»: في وقت يستحوذ المشهد في سورية على نصيب الأسد من المتابعة على مستوى العالم، وبعد أشهر من هدوء المعارك في العراق؛ يبدو أن العراق سيعود إلى الصورة من جديد مع اشتعال الحرب ضدّ «داعش» من جديد. في السابع من تشرين الأول الماضي، بدأ كلّ من الجيش العراقي والشرطة المحلية ومقاتلين من قبائل داعمة، إضافة إلى دعم التحالف والهجوم الجوّي العراقي؛ بمحاولة جادة لتطويق مدينة الرمادي ـ المدينة ذات الغالبية السنّية الواقعة غرب بغداد ـ في محاولة لاستعادتها بعدما سيطر عليها تنظيم «داعش» منذ أيار الماضي. وكما أعلنت «إيكونومست» من قبل، فإن محاولة استعادة المدينة هذه المرة تبدو في اليد، مع قوة قوامها عشرة آلاف مقاتل عراقي، تهدف للسيطرة على جسر «بو فراج» الذي يعدّ مفتاحاً رئيساً لدخول المدينة، أمام ألف مقاتل فقط من «داعش»، وهم كل من تبقّى داخل المدينة.

في 15 من تشرين الأول الماضي، بدأ 5000 جندي عراقي مدعمون بقوة من الشرطة العراقية، إضافة إلى 10.000 من المقاتلين الشيعة الذين تدعمهم إيران (المعروفون باسم قوات الحشد الشعبي) مع دعم جوّي من التحالف، بدؤوا هجوماً عنيفاً من أجل استعادة مصفاة نفط «بيجي». بعد شهور طويلة من القتال، أخيراً استطاعوا الانتصار في هذه المعركة بتدمير المصفاة الأكبر في العراق تماماً، ولكن نظراً إلى وقوعها بين بغداد ومدينة الموصل التي يسيطر عليها تنظيم «داعش»، فإن السيطرة على هذه المنطقة تعدّ أمراً حاسماً جداً في هذه المعركة. السيطرة على هذا الطريق سيجعل من الصعب جداً على «داعش» تهديد مدينة تكريت التي استطاعت الحكومة استعادتها في نيسان الماضي، إضافة إلى أنه سيصعب تعزيز «داعش» سيطرته في الأنبار.

التأخير لم يكن أمراً مقلقاً على الإطلاق في العمليتين السابقتين، كان السبب الرئيس فيه قيام الجيش بإعادة تنظيم صفوفه بعدما انهار جزآن أساسيان منه عندما استطاع «داعش» غزو شمال العراق وغربه، والسيطرة على الموصل، وهي ثاني أكبر مدينة عراقية (يصل تعداد سكانها إلى مليوني نسمة)، لذا فإن هذا التجديد على صعيد الجيش شمل عدة تكتيكات عسكرية جديدة أهمها تطبيق أكثر من هجوم قومي بالتزامن مع بعضهم، إضافة إلى التنسيق والعمل جنباً إلى جنب مع قوات الحشد الشعبي وقوات الأمن العراقية التي تسيطر عليها الحكومة أيضاً، وهو ما يغيّر ما يحدث على الأرض إلى حدّ ما. إذ ركزت قوات الحشد الشعبي في الفترات السابقة جهودها على محافظة صلاح الدين شمال بغداد.

تسعى الولايات المتحدة الأميركية إلى تحقيق انتصار ساحق في العراق من دون أن يكون هناك أيّ فضل لإيران في الأمر، وهو ما يفسر تكثيف الضربات الجوية الأميركية على محافظة الأنبار والتي وصل عددها ـ وفق ادّعاءات البنتاغون ـ إلى ما يزيد عن 150 ضربة جوية في الأسابيع الثلاثة الماضية استهدف أغلبها مناطق قريبة من الرمادي.

مع التدخل الروسي القوي في العراق، أصبح الأمر مقلقاً جداً للولايات المتحدة التي ترغب بالسيطرة على ما يحدث وأن تكون اللاعب الرئيس في هذه المعركة، ما دفع أميركا إلى إيفاد الجنرال جو دانفور ـ أحد كبار جنرالات البحرية الأميركية ـ إلى العراق لتحذير وزير الدفاع العراقي من أن الدعم العسكري الأميركي لن يستمر بهذه القوة إذا ما استمرت روسيا في ضرباتها الجوية من تلقاء نفسها من دون تنسيق مع الولايات المتحدة الأميركية.

كانت هذه الرسالة بمثابة تنبيه لحكومة حيدر العبادي أن التحالف الذي تقوده أميركا هو العدو الأهم والأقوى لتنظيم «داعش»، لذا فإن ما يحتاج العبادي إليه انتصار سريع في الرمادي ليثبت للعراقيين أن اختياره أميركا هو الأمثل، إذ يرى الخبير الأميركي باتريك مارتين من معهد دراسات الحرب في واشنطن أن سيطرة القوات المدعومة إيرانياً على «بيجي» سبّب ضغطاً كبيراً على العبادي بسبب خياره الأميركي دائماً.

يبدو أيضاً أن أميركا تلقت رسالة استياء العراقيين، في الوقت ذاته يرى أوباما أن الأمر يحتاج إلى وقت للقضاء على «داعش» الذي وصفه بـ«السرطان». يعتقد أوباما أيضاً أن سيطرة «داعش» على عدة مدن يصل مجموع سكانها إلى 10 ملايين نسمة، وعلى رغم أنه يحكمهم بالقوة، إلا أن غالبية هذه المناطق ذات غالبية سنّية، كما يقدّم لهم «داعش» بعض الخدمات إضافة إلى متطلبات الحياة الأساسية، وهو ما قد يجعل الكثير منهم يفضل سيطرة «داعش» على هذه المدن بدلاً من سيطرة الحكومة ذات الغالبية الشيعية في بغداد والتي يعتقد الكثير منهم أنها تتجاهلهم وتهملهم.

على الجانب العسكري، على رغم استخدام «داعش» عدة تكتيكات إرهابية – كالعمليات الانتحارية على سبيل المثال – إلا أن هذا الأمر ما هو إلا جزء بسيط من قدراتهم العسكرية الهائلة التي ربما أغفلها أوباما قبل بدء هذه الحرب.

الهدف الأول لأميركا كان إبعاد «داعش» عن المدن الشيعية الرئيسة مثل سامراء وكربلاء وكذلك حدود بغداد. وقد نجح هذا الهدف إلى حد بعيد. في الوقت ذاته، تبدو مناطق الحكم الذاتي التي يسيطر عليها الأكراد وحكومتهم الإقليمية في أربيل آمنة تماماً، حيث أنشأ مقاتلو البيشمركة خطوطاً دفاعية قوية تمتد عبر غالبية أنحاء محافظة كركوك الغنية بالنفط.

هذه الانتصارات المتتالية التي أفقدت داعش 15 في المئة من مناطق سيطرتها التي استطاعت اغتنامها في بداية هذه السنة لم تتواصل بالمعدل ذاته، إذ توقفت هذه الانتصارات مؤخراً ما هدم حالة التفاؤل المبالغ فيها من الخبراء العسكريين الأميركيين والحكومة العراقية، كان السبب الرئيس لذلك انتصار «داعش» في الرمادي في أيار الماضي.

لم يتوقف الأمر عند فشل أميركا في دفع الحكومة العراقية للتعاون مع القبائل السنية في الأنبار فقط، ولكنها أيضاً خسرت الكثير من الشعبية أمام نظيرتها إيران التي قدمت مساعدات عسكرية أكثر سرعة وغير مشروطة من تلك التي يقدمها التحالف. يرجع البعض هذا الأمر إلى تخوف أوباما من أن يؤثر تحديه إيران في هذه الحرب على المفاوضات النووية في طهران.

هذا الأمر يتغير حالياً ولو تدريجياً، ولكن من دون تكثيف المساعدات العسكرية الأميركية في الوقت الحالي واستمرار دعمها الإمن العراقي وزيادة الضربات الجوية، ربما يظل خطر قبول الوضع الراهن قائماً، وهو ما يهدد وحدة العراق، وهو ما سيكون بالتأكيد مرضياً لكل من إيران وتنظيم «داعش».

في الوقت الذي يتواجد فيه 3500 من المدربين العسكريين الأميركيين في العراق، إلا أنهم يتمركزون في وحداتهم الخاصة بأمر من أوباما. في وقت تلاقي الاستراتيجية الأميركية لهزيمة «داعش» عدداً من الانتقادات، يرى أنتوني كوردسمان من مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن أن تكوين أو إعادة بناء بعض القوات من الخط الخلفي هو أمر سيكون مصيره الفشل الذريع، وأنه يجب أن فرق المستشارين في تكوين مجموعات قادرة على القتال حقاً.

ما أحبط العراقيين أيضاً، تلك القوانين التي وضعتها الولايات المتحدة لتقليل الخطر على المدنيين والتي أدت بشكل كبير إلى تقييد الكثير من الاشتباكات. أحمد علي – وهو محلل كردي عراقي – يرى أن تلك القواعد بدلاً من أن تكون فعالة ومساعدة، أدت إلى إعاقة تقدم القوات البرية. في حين يعتقد أنتوني كوردسمان أن الضربات الجوية بمستواها وكثافتها الحالية ضعيفة، وأن ضربات أكثر شدة وشراسة ستعزز من الروح المعنوية للعراقيين، وأن تدمير الوحدات الأساسية لـ«داعش» سيعطي القوات العراقية فرصة حقيقية لاستعادة قوتها وسيطرتها. كما صرح الجنرال دانفورد بأنه بدءاً من هذا الأسبوع ستكون هناك عمليات مشتركة بين القوات العراقية من ناحية والأميركية من ناحية أخرى لضرب أهداف التنظيم جوياً وبرياً.

الكثير من الشكوك تدور حول مدى قدرة وإرادة أوباما على تحقيق النجاح في العراق، إلا أن ما تشهده الأيام الأخيرة يمثل تحولاً كبيراً ويثبت سعيه الحثيث نحو ذلك. الدعم غير الحذر من التحالف سيدعم عبادي كثيراً في الوقت الذي يحتاج فيه بشدة لهذا التدعيم، محاولة إقناع السنة أن الحكومة في بغداد تهتم لأمرهم وترغب في بقائهم كجزء أساسي من العراق هو السبيل الوحيدة للقضاء على تنظيم «داعش» على المدى البعيد. العراق يعيش حالة من الفوضى تماماً كسورية، ولكن الأمر المختلف هنا أن الحل لا يبدو قريباً.

«داعش» في الموصل

ما الذي تفعله روسيا في العراق الآن؟

كتبت «ميدل إيست بريفينغ»: اختتم الجنرال في مشاة البحرية الأميركية جوزف دانفورد، رئيس هيئة الأركان المشتركة، الأسبوع الماضي زيارته الهامة إلى العراق. في حين أن الارتباك في بغداد حول السماح لطائرة دانفورد من طراز «C–17» لا يزال غير مبرّر، فإن الجنرال عموماً لا يضيع الوقت في الوصول إلى عمله. مهمته الأولى، كما قال في بغداد، كانت أن يوضح لرئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي أن السماح للروس بالتحليق فوق مناطق الحرب في العراق سوف يعقد من المهمة الأمنية للولايات المتحدة في العراق وربما ينتهي إلى خفضها أو إلغائها.

قبل فترة قليلة من سفر الجنرال إلى بغداد وأربيل، كانت جميع خطوط الهاتف بين كبار المسؤولين الأميركيين ورئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي وكبار مساعديه مشغولة دوماً. وقال دانفورد في الأول تشرين الأول الماضي إنه يعتقد أن التقارير التي تفيد بأن الحكومة العراقية طلبت من الروس تنفيذ ضربات جوية في العراق «لم تعد مدرجة على جدول الأعمال». حتى الآن لا يعتقد، حتى في بغداد نفسها، أن الروس على استعداد لإجراء أي من الطلعات الجوية الكبيرة هناك. السحابة الكاملة من الشائعات حول دور وشيك للقوات الجوية الروسية كان هناك مجرد انعكاس للمناخ السياسي وأداة في الصراع السياسي الدائر في العراق.

قامت مصادر في لجنة الأمن في البرلمان العراقي بتسريب معلومات حول أن روسيا تقوم بالفعل بالتحليق بكثافة في جميع المواقع الاستراتجية، وأن غرفة عمليات المربع الأمني المكون من روسيا وإيران وسورية والعراق تعمل بكامل نشاطها. «لم يكن بإمكاننا تطهير بيجي من داعش من دون مساعدة من مركز الاستخبارات الجديد الذي يتضمن الروس»، وفقاً لأحد أعضاء اللجنة.

رئيس اللجنة، حاكم الزاملي، قام بتأكيد هذه التسريبات بشكل أو بآخر. «من دون مساعدة روسيا، معركة بيجي كان يمكن أن تكون أطول وأصعب... معركة الموصل هي خطوتنا المقبلة» وفقاً لقوله. ولكن الزاملي اعترف بأن مساعدة موسكو ليست في شكل غارات جوية.

لا دليل على الإطلاق على أن الروس قد لعبوا أيّ دور تنفيذي في «بيجي» أو في أيّ مكان آخر في العراق. تقييم «غرفة العمليات» من قبل ضباط الجيش المحترفين هو أنها لم تحدث فارقاً حقيقياً حتى الآن. المعلومات لدى الروس من العراق هي ذات الصلة أساساً بقتالهم الأساسي في سورية.

ولكن تقارير أخرى تشير إلى أن معركة «بيجي» لم تنته تماماً. عندما طلب منه التأكيد أن «بيجي» قد صارت نظيفة تماماً فقد كان المتحدث باسم قوات الحشد الشعبي، أحمد الأسدي، متردّداً في شأن إعطاء مثل هذا التأكيد. «أستطيع أن أقول إن 90 في المئة من بيجي قد صارت خالية من أي وجود لتنظيم داعش».

يمكن تلخيص الديناميكية في العراق في ما يتعلق بدور روسيا بالمثل الشعبي العربي القائل: «عدوّك يتمنّى لك الخطأ وصديقك يبلع لك الزلط» وبعبارة أخرى، فإن قوات الحشد الشعبي تفسّر كل التقدم الحاصل الآن أنه نتيجة للدور الروسي، في حين أنها تؤكد أن كل الهزائم الماضية كانت بسبب الولايات المتحدة. حتى أنه لم يُشد بالغارات الجوّية على «بيجي» كما تم مع روسيا.

بعد، فإنه من اللافت أن نلاحظ أن بغداد مليئة بالمضاربات والتخمينات في هذه الأيام حول تقسيم العمل بين الولايات المتحدة وروسيا في العراق. المعلق العراقي، هشام الهاشمي، قال إن هذا التقسيم للعمل هو «سرّ» على ما يبدو. «لا ترى الولايات المتحدة أنه من المناسب التنسيق مع قوات الحشد الشعبي طالما أنها ليست جزءاً من قوات الأمن الحكومية». ولذلك، اختار الأميركيون جبهة الرمادي وتركوا «بيجي» للحشد الشعبي: وهذا يعني ضمناً أن وحدات الحشد الشعبي لن تشارك في معركة الرمادي.

والحشد الشعبي عبارة عن قوة طائفية مع أقنعة سنّية رقيقة. وتتزايد بين صفوفه معدّلات العداء للولايات المتحدة. عندما رفضت القوات الأميركية الوحشية الطائفية التي ترتكب ضدّ أهل السنّة في المعارك السابقة، اتّهم قادة الحشد الشعبي الولايات المتحدة بالانحياز. عندما أصرت الولايات المتحدة على استبعاد هذا الجيش من المتعصبين الذين يرفعون لافتات طائفية حادة من المعارك في الأنبار، فقد اتهموا الولايات المتحدة بدعم «داعش».

ولكن يبدو أن الحشد الشعبي قد وجد في التدخل الروسي متنفساً سياسياً. كما تم تنسيق هذه المشاركة مع طهران، وبما أن الروس لا يهتمون كثيراً بالحسابات الطائفية الحساسة في العراق أو حتى مستقبل الأنبار إذا أخضعت مباشرة لسيطرة القوى الشيعية وحكومة بغداد، فقد بدا أن الأصدقاء كانوا على استعداد ليغفروا لبعضهم أيّ أخطاء.

لم تَجر أيّ ضربات جوّية روسية في «بيجي». ومع ذلك، فإن الفضل يُنسَب إلى التقدّم الحاصل هناك إلى السيد بوتين. أجرت القوات الأميركية غارات جوّية مكثفة ضدّ تنظيم «داعش»، وعلى رغم ذلك فإنه تم اتهامها علناً بمساعدة المجموعات الإرهابية.

هذا التوصيف المثير للسخرية للدور الأميركي من قبل القوات الموالية لإيران الشيعية في العراق يتوازن مع توصيف لا يقل إثارة للسخرية حول الدور الروسي من قبل السياسيين السنّة. واحد من هؤلاء الساسة أخبرنا أن «روسيا تعمل في العراق من أجل إفشال الجهود الأميركية لمحاربة داعش. يجب أن تفهم أن وجود داعش هدية بالنسبة إلى إيران وأنها تريد له النمو. إنه يعطي لهم الفرصة للحشد الطائفي للشيعة وتقسيم العراق. عندما شعرت طهران بأن الأميركيين جادون في محاربة داعش في الأنبار فقد طلبوا من الروس القدوم من أجل إبطاء ذلك».

أعربت الولايات المتحدة علناً عن قلقها بعد إعلان تشكيل اللجنة الرباعية الجديدة للأمن في العراق. التوقعات في بغداد تشير بغير دقة إلى قرار قريب يسمح لروسيا ببدء غاراتها الجوية الخاصة ضد «داعش». هذا الأمر هو جزء من الحرب النفسية السياسية الجارية في بغداد.

الوضع في العراق واضح على رغم ذلك. قدم التدخل الروسي للقوى الشيعية الموالية لإيران دفعة نفسية هائلة. الجانب السلبي من هذه الديناميكية سوف يظهر في مرحلة لاحقة حين يتضح أن روسيا غير قادرة على شنّ أيّ حملة مستدامة وحين يصبح الحشد الشعبي تحت ضغط شديد في معاركه المستقبلية.

وقد أكد العبادي لدانفورد بشكل عام أن بغداد لم تقم بدعوة روسيا إلى شنّ حملة جوية في العراق. ولكن رئيس الوزراء ليس صاحب القرار الوحيد في بغداد. في بعض القضايا، فإنه حتى قد يكون صاحب القرار الأخير. الروس قد يجدون أنفسهم واقعين تحت ضغوط لزيادة مشاركتهم. القوى الشيعية في الواقع سوف تواجه موقف حرجة في ميادين القتال. ويمكن أن تتغير الأمور.

وفي الوقت نفسه، فإن الدور الروسي، فعلياً كان أو وهمياً هو بطاقة جيدة لمحاولة الضغط على الولايات المتحدة كذلك. ولكن الولايات المتحدة يمكنها ببساطة أن تقول للعبادي «حظّاً موفقاً»، وتتجه إلى تسليح الأكراد لمواجهة «داعش» وتراقب إلى أي مدى يمكن لروسيا حقاً أن تذهب في العراق إذا قررت أن تضيفها مع سورية إلى أجندتها التشغيلية.

والحقيقة هي أن الروس يفعلون القليل جداً في العراق اليوم. وترتبط أنشطتهم بشكل رئيس بسورية. أثر وجودهم هناك لا يعدو إلى الآن كونه أثراً نفسياً ولا يمكن التقليل من ذلك ولكنه يعني أن هذا الأثر سوف يكون قصير الأجل. سيكون مهما فقط في بقدر ما يشجع القوات الموالية للشيعة إيران، في نشوتها الحالية، لارتكاب أخطاء أكثر غباء.

مصفاة بيجي

مشهد من الدمار في مدينة الرمادي